الفكر الخاطئ والسلوك العبثى

يعجب كل متابع للحالة الفكرية والمجتمعية في العالم الإسلامى لكل هذا الاختلاف والشقاق بين النخبة والعامة فى أمور تتعلق بصميم الدين والمجتمع. إذ تموج الساحة الفكرية بأطروحات وأفكار تتوخى الانفراد بتوجيه مسيرة الدين والوطن فى الأحداث التى تواجه المجتمع والأمة باعتبارها من وجهة نظر أصحابها التعبير الصحيح عن الإسلام، بما يكفل للجماعة أن تسير حياتها، وتنظم أمرها وفقا لرؤيتها وعملا بمنظورها وتفسيراتها فى العلاقة بين الدين والحياة.

أول هذه الفرق تتجه إلى فكر التشدد والتنطع ذلك الذى يعتنق فقه الظاهرية الجديد، فى الاعتماد على ظاهر نص بعينه ويحبس نفسه فى حرفية بعض نصوص القرآن والسنة ويضعها فى دوائر مغلقة، يفرض عليها ستارا حديديا ويفصلها عن سياقها فهو يصادر قواعد الاستنباط، ويغيب قواعد التفسير المتعارف عليها، ويتجاهل القواعد التىأرساها الأصوليون، ويتبنى التفسير الضيق الذى يقوم على سجن النص وعزله عن الحكم والعلل والدلالات التى توخاها الشرع من التشريع بالتعرف إلى المقاصد والحكم التى يتمكن بها من مواكبة أحداث الحياة، ومجابهة الواقع، والجمع بين النصوص.

وثمة ملامح فارقة يمكن رصدها فى فكر هذا الفريق

الانغلاق على حرفية النصوص، والتعبد بالمتون لا يفارقها بدعوى أن فى الخروج على هذه الحرفية والنصية ضلال فى الدين، واتباع الهوى

والتقول على الله بغير علم ولا برهان.

اختزال الدين فى طقوس وشكليات وحجب مضامينه وغاياته ومقاصده الكبـرى، إذ الدين عند أصحاب تيار الغلو والتشـدد، ينحصر فى إطالة اللحية، وتقصير الثياب، والسواك، والنقاب، والتعوذ والحوقلة من هؤلاء الذين لا يسلكون مسلكهم، ولا يصدعون لرأيهم، غافلين عن حديث: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم][1].

وينسحب هذا الفكر المتشدد على أمور المعاملات والشئون الحياتية، وحتى فى النظر إلى أركان الإسلام، والعبادات.

فبـدء صيام رمضان يكون بالرؤية البصرية، تمسـكا بظاهر الحديث: [الشهر هكذا وهكذا وهكذا – ثم عقد إبهامه فى الثالثة – فصوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غمى عليكم فاقدروا له ثلاثين][2].

ويتعصبون لذلك، حتى لو أدى أن يكون لأكثر من جماعة داخل الدولة، بداية مختلفة عن الأخرى لشهر رمضان مع ما فى هذا الصنيع من تفويت لأقوى رابط بين المجتمع والأمة، وحدة الجماعة فى ركن من أركان الإسلام.

وما حدث فى بداية الشهر من الاختلاف يحدث كذلك عند الانتهاء، فى يوم العيد.

وعلى شاكلة هذا النمط المغلوط لأحكام الدين

إباحة زواج القاصرات، فلا مانع فى رأيهم أن تتزوج صبية أقرب إلى أن تكون طفلة برجل بلغ من العمر أرزله حتى وجدنا صبية فى التاسعة من عمرها تزوجت أكثر من مرة، وأخرى عمرها ١٧ سنة تزوجت ١٦ مرة.

---

(١) سنن الترمذى، كتاب الزهد، باب ٩ رقم ١٤٨٢٣.

(٢) رواه مسـلم كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم فى أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوما.

ويقولون ذلك بحجة وجود العقد الشرعى وتوفر الرضا والشهود على ذلك، كما يستدلون بزواج السيدة عائشة بالرسول ﷺ، وهو قول غير ناهض لأنه لم يثبت أن الرسول تزوجها أو دخل بها فى هذه السن المبكرة، والثابت أن زواج الرسول برمته كان مؤسسا على الخصوصية لأمر الرسالة ونشر الدعوة.

أما الزواج بالقاصرات الحاصل هذه الأيام، فهو عودة لسوق النخاسة الجديد، ووأد للبنات على نحو ما كان يفعله عرب الجاهلية الأولى، واستعباد للنساء، وصورة من صور المتعة أو الزواج المؤقت المحرم شرعا.

كما أن إخراج زكاة الفطر لا يجوز إلا من البر (القمح) أو الشعير أو التمر، فى الأصناف التى نص عليها الحديث لا يجوز إخراج النقود بديلا عنها، مع كونها تحقق مقصود الشرع من تشريع صدقة الفطر، وأنفع للفقير، وأنسب لظروفه، وتغنيه عن ذل السؤال فى هذا اليوم، وهو مطلب إسلامى نبه إليه الرسول ﷺ [أغنوهم عن ذل السؤال فى ذلك اليوم][1].

ومثل هذا الاختلاف يحصل فى ركن الإسلام الخامس وهو الحج إلى بيت الله الحرام، فيما يتعلق فى السعى بين الصفا والمروة، فهم يرفضون السعى فى التوسعة الجديدة، بحجة أنه لا دليل عليها من قرآن ولا سنة، وأنها تخالف السنة النبوية، غير عابئين ولا مبالين بأرواح المسلمين وآدميتهم وجلال أداء الشعيرة، بسبب الزحام الشديد، والهرج الذى يبلغ حد الفوضى.

وفى شئون الحياة ينكرون على المرأة أن تتولى القضاء، واقفين عند ظاهر حديث: [لن يصلح قوم ولوا أمرهم امرأة][2].

---

(١) من أقوال الفقهاء والجمهور على استحباب ذلك ترتيب مسند الشافعى.

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى، باب ٨٢.

مـع أن القرآن أثنى علـى صنيع بلقيس وهى حاكمـة على قومها، ومتولية لأمرهم: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٣].

وأن النهـى فى الحديث إنما ينصرف إلى الإمامة العظمى، كحاكمة علـى جميع أقطار المسـلمين، بـل إنهم يغالون فى وضعيـة المرأة فى المجتمـع، فيعتبرونها عورة، فى صوتها وفى كيانها، وفى ظهورها فى مناشط الحياة، ومشاركتها فى الشأن العام ويصورون ذلك بأنه من التبرج الـذى نهى اللـه عنـه ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣]. وهم ينكرون بذلك إنسانية المرأة، ومشاركتها وأدوارها مع الرجل فى بناء المجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام فى تأسيس الدولة مع الرسول فى بيعة العقبة الثانية، ٧٣ رجلا وامرأتان.

ومشورة أم سلمة للرسول فى صلح الحديبية.

وروايات السيدة عائشة ﷺ للأحاديث.

وحفظ السيدة حفصة ﷺ لنسخة القرآن بعد الجمع الأول إلى الجمع الثالث فى عهد عثمان بن عفان ﷺ.

وهـم يرفضون الديمقراطية الحديثة، ويعتبرونها بمؤسسـاتها صناعة غربيـة ينبغـى إدانتها والتخلى عنهـا، مع أنه يجـوز اعتبارها إعمالا للشورى الإسلامية فى ضوء الضوابط والقواعد الشرعية.

الشطط فى التحريم

فدنيا المسـلم فـى نظرهم من المحرمات والمحظـورات والمنهيات، وكأن الإسلام لم يأت إلا بالويل والثبور وعظائم الأمور.

فزاعة تكفير المخالفين ورميهم بالفجور والفسق

إذ ينصبون أنفسهم على أنهم أصحاب الدين وملاك الحقيقة يصدرون صكوك الشرعية ومصائر العباد، ويرمون الفرد والمجتمع والدولة بالتكفير والفسق والفجور.

وهـذا يخالف قوله تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨].

أيضا مخالفة ذلك لما ذهب إليه المحققون من الفقهاء

فإنه إذا صدر قول أو عمل من مسـلم احتمل الكفر من تسعة وتسعين وجها، واحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل حال المسلم على الإيمان[1] ترجيحا لجانب الإيمان على جانب الكفر.

الفريق الثانى: فكر التغريب أو التحلل فهو يعتبر الدين قوة روحية، لا يجوز تحكيمها فى شـئون الحياة، وأنصاره يشـتطون فى فهم الدين وتفسير نصوصه، تحت مسمى الاستنارة والحداثة.

هـذا التيـار يقوم علـى عدم التقيـد بالنص ولا يأبـه بالوقوف عند محـددات فهمـه، والمعطيات التى جاء بها، وسـبب نزوله، وضوابط إعماله وتفسيره أو تأويله.

ونتيجة لذلك فقد أحدثوا فى الدين ما ليس منه، وأضفوا عليه ما لم يكن فيه، بل قد ينتقصون من حقائق الدين، أو يشككون فى ثوابته لمقتضيات عصر العولمة، عن طريق الاجتهاد والتجديد، تحت مسميات براقة كالتنوير أو العصرنة أو الحداثة أو العولمة أو الكوكبة أو ما يراد منها من المصطلحات.

(١) الإمام محمد عبده، الإسلام والنصرانية، مع العلم والمدنية، ص ٥٣.

ويتحكم فى نظر أصحاب هذا الاتجاه عوامل شخصية، وتأثيرات أجنبية، أثرت على فكرهم، ومسخت خصوصيتهم، وفعلت بهم الأفاعيل، إلى حد غسل الأدمغة، والدوران فى فلك الغزو والافتنان بكل ما هو غربى، والتجرؤ على كل ما هو إسلامى.

ولديهم بجانب ذلك ميول وأهواء تعلب برؤوسهم وترسم توجهاتهم، فهم رواد الفكر، ودعاة التنوير، وصناع التقدم، الذين يجرون قاطرة المجتمع إلى الأمام، وكل منهم يقدم نفسه على أنه قبطان سفينة الإنقاذ للوطن والفكر المستنير الذى بفكره ترقى الأمة، ويتقدم المجتمع.

وهم فى توجههم نحو التحلل والانفلات من النصوص، والنعى على القرآن والسنة، وتفسيرها بما يتفق مع تصوراتهم التحكمية والفردية يسلكون مسلك الشطط والتجاوز عما هو ثابت ومقرر:

فها هو ذا الأستاذ «جمال البنا» من دعاة هذا الفكر يقول عن السنة الشريفة[1]: إن ألوف الأحاديث التى وردت فى ذلك وامتلأت بها كتب السنة وأكدها وحققها المحدثون وحكموا بصحتها ووصلوا ببعضها إلى المتواتر أعطت للمجتمع الإسلامى بعضا من أظهر خصائصه، وهن المعارضة السياسية وغياب المرأة من المجتمع أو حرمانها من العلم والمعرفة والحيلولة دون ظهور الفنون والآداب وبقية تجليات النفس الإنسانية، وأوجدت النفسية النمطية للمسلم والطابع السائد للإسلام الذى تغلب عليه الطقوسية والعبادية والتقليد والاستسلام والسلبية والبعد عن الفعالية والمبادآت الحية والنشطة واتجاه القرآنيين الذين يحصرون الإسلام فى القرآن وحده وينكرون الاحتجاج بالسنة وأنواعها، ويشتطون فى تفسير القرآن، استنادا إلى ما ورد فى القرآن الكريم:

(١) قضية الفقه الجديد، دار الفكر الإسلامى، ص ٥٨.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨].
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٩].

فى تغييب وتجاهل لحقائق القرآن الموجبة لإتباع الرسولا ﷺ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [سورة الحشر: الآية ٧]. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم: الآيتان ٣ – ٤].

وقد تفرع عن مقولتهم تلك جواز الحج إلى غير الكعبة فى البيت الحرام فى مكة البلد الحرام، وأن الحج ليس حكرا على هذا المكان.

ومن قبيل ذلك مقولة «د. نوال السعداوى»: من دعاة فكر التغريب أن الطواف بالكعبة من بقايا الوثنية وعبادة الحجر وفى السياق نفسه نجد أن «د. سيد القمنى» يقترح أن يبنى بناء على غرار الكعبة يكون مجمعا للأديان على أرض سيناء كى يقصده السياح والزائرون، على أساس أنه يجمع بين الأديان ويكون مزارا لأتباع الأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية.

وموطن المشلكة اعتبار المبنى كالكعبة بيت الله الحرام، يتمتع بالقدسية، ومقصد للمسلم وغير المسلم.

وكما هو معلوم فإن زيارة المسلم البيت العتيق، والحج إلى الكعبة، هو الفرض الخامس من فرائض الإسلام.

وعليه فإن محاكاة الكعبة، ونقل قدسيتها إلى أرض سيناء يتنافى مع مكانة الكعبة وجلالها كأول بيت وضع للناس بمكة وهو الموضع المبارك

والمقدس فى الزمان والمكان تحديدا، الذى هو بيت عبادة المسلمين ينبغى أن يظل على تفرده وخصوصيته وتميزه دون تعدية على هذه الخصوصية والتفرد إلى صرح آخر مهما كان المبرر، بحسبان أنه يجب احترام بيوت العبادة والاحتفاظ لها بطابعها وخصوصيتها لأتباع كل دين.

ومن أراد أن يقيم مبنى أو مزارا، فلا بأس شريطة ألا يتخذ كمكان لحج المسلمين وألا ينعت بالقدسية أو العبادة كالأمر فى الكعبة التى خصتها نصوص القرآن والسنة بالعبادة وأوجبت الحج إليها، وتشد إليها الرحال مع المسجد النبوى، والمسجد الأقصى، دون سواها كما أخبر بذلك الحديث، وفى القرآن: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦].

والأولى فى هذا المقام أن تفتح القدس الشريف لتكون مزارا ومقصدا لأتباع الأديان جميعا، الإسلام والمسيحية واليهودية فعلى أرضها توجد مقدسات الأديان الثلاثة بدلا من أعمال الاستيطان والتهويد التى تقوم بها إسرائيل بغية طمس معالمها العربية والإسلامية، وتحويلها إلى تراث يهودى، افتئاتا على مقدسات الإسلام والمسيحية.

أيضا معارضة البعض لمشروع قانون منع ازدراء الأديان الذى تسعى مصر لتمريره عبر مجلس حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، فهم يحسبونه قيدا جديدا على حرية الرأى والتعبير وسيفا مسلطا على رقاب المفكرين والمبدعين، فيعتبره «د. عبد المنعم تليمة» بأنه: الأخطر على الإطلاق، ويؤدى إلى خنق الإبداع والفكر الحر[1].

(١) اليوم السابع شبكة المعلومات الدولية، بتاريخ: ١/ ١٢/ ٢٠٠٩م.

فيما تقول د. «نوال السعداوى» فى رفضها للمشروع[1]: إن الإبداع العلمى والفكرى هو أساس تقدم البشرية، وهو قائم على كسر تابوهات الأديان. أما ما تفعله الحكومات بدعوتها لمثل هذا القانون، إنما هو استخدام الدين كورقة رابحة بهدف ما وصفته بتحجيب العقول وتقسيم الشعوب على أساس الدين وسلامها فى ذلك هو تملك القوى الرجعية لتدعيم أركان الاستغلال الطبقى فى العالم.

ويمضى أنصار التغريب فى مقولتهم بأن الدين يقف ضد حرية الفكر والإبداع والابتكار، وهو حجر عثرة فى سبيل الفكر المستنير الخلاق.

وقد أغفلوا بهذا القول منجزات الحضارة الإسلامية فى العلوم الإسلامية والعلوم الكونية والعقلية، وفى الفنون والآداب، وإبداعات الحضارات العالمية اليونانية، وكذا العديد من إبداعات الحضارة الحديثة مثل روسو ومونتسكيو ولوك وتوينبى وغيرهم.

فهذه المنجزات الفكرية لم تصادم ثوابت الدين، ولم تتنكر له، ولم تكفر بالمعتقدات الدينية أو تصفها بأنها تخنق الفكر والإبداع.

وبالرغم من ذلك فإن هذا التوجه يبنى طرحه ورؤيته من منطلق أن الإسلام ينتقص ويهمش من وضعية المرأة، ويشكله فى استجابة الإسلام وتبنيه لفكر حقوق الإنسان، فضلا عن تقديمه الإسلام بأنه بخاصم الحريات على اختلافها حرية المعتقد، حرية التعبير، حرية الإبداع والتفكير.

وفوق ذلك، فإن «الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى» يحصر دور الدين داخل جدران المسجد وأما شئون الحياة فلا دور له فيها، وهى مهمة العقل والقوانين والشرائع، وهو وغيره من أصحاب هذا الفكر يقيم

(١) اليوم السابع، على موقع شبكة المعلومات الدولية بتاريخ: ١/ ١٢/ ٢٠٠٩م.

قطعية بين الإسلام والحياة، فلا دور للإسلام فى الشئون العامة، ولا شأن له بالقضايا المجتمعية، فهو محصور فى المسجد لا ينفك عنه، وهذه هى مهمته كعقيدة تبنى العلاقة بين الله والمسلم، وأن يعبد الله كما أراد وحددت مشيئته، أما المجتمع وقضاياه ومشكلاته فلا شأن له بها.

وكأن الدين فى نظر هذا الرأى هو وسيلة للتبرك، حيث يوضع القرآن كزينة فى المنازل والسيارات، ويتلى فى الجنائز والمساجد وعلى مقابر الأموات وكفى، أما شئون الحياة والمناشط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلا دور للإسلام فيها.

الإشكاليات الناشئة عن تصادم المذاهب الفكرية يمكن إنجازها فى أمور من بينها

تغييب الرؤية الصحيحة النابعة من الوسطية الإسلامية

خلفت التيارات الفكرية تداعيات وجعلت الرؤية ضبابية فى أعين الجماهير والرأى العام، فقد اعتصم كل تيار برأيه الأحادى وتخندق حول الفكر الذى يدعو إليه، واعتبرها الملاذ الكفيل بتحقيق النجاة، واستعادة الإحياء والتجديد فى الفكر والممارسة، مما يعود بالمجتمع والأمة إلى رشدها، ويصحح لها أمر مسيرتها.

– تكريس حالة الاختلاف ورفض الآخر، والعمل على إقصائه ومكمن الخطر فى هذه التوجيهات تكريس حاله الاختلاف الحاصلة ونعى كل فريق على الآخر ورمى المخالف بالخطأ والخطيئة فيما يذهب إليه، وإتباع سياسة الإقصاء بل واجتثاثه من طريقه للانفراد بالساحة مما أحدث خللا فى مسيرة الفكر، عم أثره السلبى فى تقدم الوطن والأمة، لعدم قبول أفكار الآخر.

ولــو عقلت هذه التيــارات مصلحة المجتمــع والجماهير، لاتخذت مــن الوســائل النافعة ما يجعلهــا تلتقى مع بعضهــا البعض على كلمة ســواء وخطة رشــد يجدد أمر هــذا الدين، ويســتعيد دوره فى الحياة المعاصــرة، ويقــدم رؤاه وتصوراته فى القضايا والمســتجدات، ويعالج المشكلات والإشكاليات الطارئة، ويستنفذ الأمة من أزماتها، ويرسم لها الطريق نحو النهضة وتبوأ المكانة اللائقة بها بين مجتمعات الأمم، فى عالم يسير فى طريق التوحد والتكتل، والعمل بكل سبيل لإحراز الغلب والسبق، ولا يرضى عن الريادة بديلا.

إشــاعة الانقسام والمذهبية على حســاب فريضة الوحدة والوطن فى حين أن مســلك هذه التيارات بما أورثته من فوضى فكرية، وممارسات تصادميــة، واتجاه إلــى المذهبية أوجد فرقة وأحدث انقســاما، فصار الصراع بينها على أشــده لا مجال لبلورة قواسم مشتركة فيما بينها، ولا توجه لأعداء مصلحة الدين والوطن فوق كل المصالح الضيقة، والدعاوى الزائفة، المفرقة فى مصادرة فكر الآخر ونفيه والرغبة فى استئصاله.

لقــد فات أصحاب هذا فكــر أن يدركوا أن هذه الفرقة والطائفية هى الممــول الذى يهدم حقائق الإســلام ويفوض بنيــان الجماعة، ويضرب مصالحها فى مقتل، وهو مما نهى عنه الإسلام أشد النهى،

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٩]. وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦].

- ضرورة صياغة مشروع قومى لنهضة الأمة وتقدمها

لقد كان حريا بكل رأى أن يسعى من منطلق ينبع من الهوية ومصلحة الوطن، لأجل أن يجتمعوا على الهدف، ويسلكوا السبيل إليه بدلا من هذا الخلل والاضطراب والبلبلة والتخبط فى مسيرة الحياة، بأن يعملوا صادقين مخلصين نحو صياغة مشروع قومى نابع من هوية الأمة، مستلهما مقاصدها وأهدافها فى جميع المناشط الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يحقق النهضة والتقدم.

ومن الضرورى للتوصل إلى هذا الالتقاء المنشود، صدق التوجه وإخلاص القصد نحو الاجتهاد السديد وبلورة فكر رشيد، يعلن عن هوية الأمة، وصالح الوطن والمجتمع ولا غضاضة أن تتعدد الوسائل والآليات التى تعلى الهوية وتقدم المجتمع ما دام أن هذه التعددية تتجه صوب الوحدة وتجمع الأطياف والاجتهادات نحو الهدف الواحد.

– الاعتصام بأدب الاختلاف وثقافة الحوار فى ظل الهوية ما من شك أن التحلى بأدب الاختلاف وثقافة الحوار، وقيم التفاهم، يضحى مسألة أساسية، ومطلبا حتميا لنجاح الحوار، إذ إن الحفاظ على أدب الاختلاف هو ركيزة وقاعدة لكل حوار بوجه عام، وفى الحوار البينى بين أبناء الدين والوطن الواحد، بموجب أنهم شركاء فى الدين والوطن، وأصحاب قضية وهدف واحد.

وإلى جانب هذا الحوار البينى المتحلى بأدب الاختلاف والحرص على بلوغ الحقيقة، يلزم احترام كل طرف للآخر، وإتاحة الفرصة له، وتفهم قوله بمقتضى أنه يشكل ضمانة مكملة للأولى، ومرتبطة بها

لا تنفك عنها، وأحرى بالفريقين أن يطبقوا ما نبه إليه القرآن عند الاختلاف: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٣].

أن يبدى كل طرف حجته فى القضية وفق الأدب القرآنى عند المحاجة: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤].

وأن يقتفوا طريق الفقهاء فى إدارة الاختلاف، فيما قاله أبو حنيفة: «علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه»، وفى مقولة الشافعى: «رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب».

وما لم يتحكم الطرفان إلى هذه الأسس فى التعامل مع اختلافاتهم الفكرية ورؤاهم المذهبية، فإن ثغرات الجاهلية ستتفاقم، ونزعات الاختلافات ستتحول إلى خلافات ذميمة وممارسات غير مشروعة، تقود إلى مزيد من الفوضى والانقسام والطائفية مما يلقى بظلاله على مجمل العلاقات بين فئات المجتمع، ويقوض البنية الأساسية لصرح الوطن والأمة.

تيار الوسطية

ذلك التيار الذى يعتمد منهج الإسلام الصحيح، فى التوفيق بين العقل والنقل، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وينطلق من الأصول الإسلامية للوفاء بمتطلبات الحاضر والمستقبل.

هذا الفكر الوسطى، يتخذ من النصوص القطعية فى القرآن والسنة، واجتهاد وتجديد المسلمين فى الدين والمدنية والحضارة نقطة ارتكاز لبناء الحاضر واستشراق المستقبل.

فهم لا يبدءون من نقطة الصفر، ولا يصادرون هوية الأمة، ولا يفرقون فى الماضى، ولا ينبطحون للحداثة والمعاصرة، إنما يبنون على صحيح الإسلام للدين والدنيا ويعيشون العصر على وعى بمتطلباته ويعملون للمستقبل، بآماله وتطلعاته المرتقبة.

ملامح الفكر الوسطى ومرتكزاته

يؤسس هذا الفكر منهجه على أصول الإسلام فى الجمع بين النص والعقل.

فالنصوص المحكمة القاطعة فى دلالتها على الحكم الشرعى فى المسألة أو القضية يتعين الالتزام بها وعدم التفلت منها وأغلبها كائن فى أمور العقيدة والعبادة وأقلها فى شئون الحياة، ومناشطها العامة.

فأمور العقائد، المتعلقة بأصول الإيمان بالله ووحدانيته والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، حق واجب، لا يوجد إسلام بدونها كونها من قواطع الدين.

ومن الواجب المفروض كذلك أداء العبادات، التى تمثل أركان الإسلام العملية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وفاء بحق الربوبية وشكر الخالق المنعم على العباد.

ومع ذلك فإن طريقة أداء هذه الفرائض قد تكون للعقل والاجتهاد فيه مساحة ومجال، حرصا على القيام بها، مثل استخدام الحساب الفلكى فى تحديد مواقيت الصلاة، ومعرفة بدء شهر الصيام.

واستخدام البوصلة فى التعرف إلى القبلة فى الصلاة، والاستعانة بالمراصد وأجهزة المراقبة لتحديد مولد هلال رمضان.

ومثل ذلك معرفة مواقيت الصلاة والصيام فى المناطق القطبية واستعمال الحاسبات الآلية فى المسائل الخاصة بالزكاة، وتحقيق الأنفع فى دفع نصابها للفقراء والمحتاجين، فى ضوء ما طرأ على العصر، وطرق تنمية أموال الزكاة.

وفى الحج الاجتهاد لأداء الفريضة مع الحفاظ على النفس من الهلاك، وضمان جلال القيام بالشعائر بالخشية والرهبة، والشعور بالصفاء الروحى والسكينة الإيمانية، والنظام الإسلامى.

وهو ما استدعى التوسعة فى الصفا والمروة ،وأماكن رمى الجمرات حفاظا على حق الحياة وقدسية الفريضة.

والنظر العقلى أساس لتحصيل الإيمان، فهو أول أساس وضعه الإسلام كما يقول محمد عبده[1] وهو وسيلة الإيمان الصحيح.

ترخم الآيات والأحاديث التى تحض على أعمال العقل، والتفكر فى الكون: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤]. ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥]. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١].

وحديث الرسول – صلوات الله عليه: [ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل][2].

وينظم أمر العقل فى الدين والشرع، حتى قال بعض العلماء: «إن إيمان المقلد لا يقبل». كما أن القدرة العقلية، والسلامة الذهنية، مناط وأساس

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص ٥١.

(٢) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة.

للتكليف بأحكام الشرع، إذ لا تكليف على غير عاقل أو من فقد عقله لعارض أو طارئ ألم به: يقول الرسول ﷺ: [رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق][1].

٢ - الجمع بين ثوابت الدين ومصالح الدنيا

فالدين والدنيا قرينان متلازمان لا يفترقان، وإذا كان الدين هو أساس الخليقة، وسبب الوجود، وعبادة الله هي واجب ومهمة الإنسان في الكون: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦].

فإن على الإنسان أن يعرف حق الربوبية، وجلال المنعم بأن يعبده ويوحده لا يشرك به شيئا.

فإن تنمية الكون وعمارة الحياة، هو الذى يكفل تحقيق الإيمان والعبادة، فغير الواجد، وغير القادر على الحصول على مقومات حياته واستمرار بقائه لن يستطيع القيام بالفرائض والواجبات ولا يجوز الاستغراق فى أركان وفرائض الدين، وهجر أو ترك الدنيا، بل العيش بهما على السواء، فالجمع بينهما مطلب شرعي ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٧]. وفى الأثر [اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا].

وإنما كان مقصود الشرع فى تحصيل الحياتين الدنيوية والأخروية بموجب أن ذلك لازم للحفاظ على كيان الإنسان ومادته، الروح والبدن،

(١) سنن النسائى، كتاب الطلاق، باب ١٢.

المعاش والمعاد، وأنه لا قوام للإنسان بدونهما، ولا استمرار لوجوده بدونهما.

من أجل ذلك شدد الإسلام على الجمع بين الإيمان والعمل فالصدق والنظافة والإخلاص والنظام من دعائم الإيمان وحفظ النفس والمال والعقل والنسل أو العرض من مقاصد الشرع، والاقتران تحت ظلال عقد الزواج الشرعي والالتزام بالحقوق والواجبات، هى من الثوابت فى الدين ومن المصالح التى لا يستقيم نظام مجتمع أو حياة الناس بدونها.

وتحقيق ذلك لكل الناس والأمم بلا تفرقة ولا تمييز فهى مطلب إنسانى، غاية الأمر أن منهج الإسلام فى الوفاء بهذه الواجبات، يكون بقدر وعلى أساس التوازن بين المصالح الدينية والحياتية أن كلا منهما يتكامل مع الآخر وأصل له لا ينفك عنه.

ولم يكن الدين الإسلامى فى المسجد أو للإيمان والعبادة فقط وإنما هو دين الحياة وللإنسان، والقائل بغير ذلك هو جاهل بطبيعة الإسلام أو غير فاقه لجوهره وأسراره، أم معاند ومغرور، غير حريص أو لا يأبه بمعرفة حقيقة هذا الدين، الذى جاء على مقتضى فطرة الإنسان وطبيعته المركبة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

* * *

الإسلام الحضارى فى مصر

ستظل مصر كنانة الله فى أرضه، بلد الإيمان والأمان، وعنوانا محفورا فى الذاكرة وفى جبين الزمان على الحضارة الإنسانية المرتكزة على قيم الإسلام فى التعايش والتسامح والتماسك المجتمعى، وصرحا شامخا لوطن يقدم نموذج التعددية الدينية فى إطار الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى.

هذه الأسس الدينية والوطنية والمجتمعية، ليست أمرا عارضا فى المسار المصرى، وإنما هى هوية أصيلة، وعقيدة راسخة فى أعماق المصريين جميعا على اختلاف أديانهم وفكرهم ورؤاهم فى توجهاتهم وسلوكياتهم التى تحمل ذلك الموروث الحضارى الذى ينطلق من الدين، ويشكل مجمل أعمالهم وتصرفاتهم فى شئون الحياة جميعا، فلا انفصال للعقيدة عن الواقع المصرى، وإنما امتزاج والتئام ووئام.

إن أمة تؤمن بهذه الأصول والقيم الجامعة، هى أمة قوية ناهضة بلا شك، لا تؤثر فيها أحداث طارئة ولا تفت فى عضدها تصرفات طائشة من هنا وهناك، ولا يثنيها ذلك بحال عن قضاياها المجتمعية ودورها القومى فى محيط أمتها العربية والإسلامية، وعلى الصعيد العالمى.

لكن تلك المكانة السامقة، وذلك الدور الذى يعد معلما من معالم الشخصية المصرية المتفردة، على المستوى الشعبى والرسمى، يبقى حاضرًا وقائما فى المشهد الوطنى وعلى الساحة الدولية، طالما اعتصمت هذه الشخصية وتمسكت بحقائق الدين الصحيح، كانت فى فهمها

لأمر الدين والتدين تجسيدا لإيمان مركوز فى أعماق نفسها ينطبع على سلوكها ويرتقى بحياتها وينهض بوطنها، وفى ذات الوقت لا يفرط فى ثوابتها ولا يخلعها من جذورها الإيمانية التى تبرهن أحداث التاريخ وتعاقب الأجيال فى هذا الوطن على أنها الحصن والملاذ ضد من يتآمر على أبناء هذا البلد الطيب، يمثل القوة الحقيقة الكفيلة بمواصلة مشوارها كدولة ناهضة وقائدة فى مصير ومسار أمتها العربية والإسلامية، ونموذج إيجابى وبناء فى العالم المعاصر.

ويخطئ قطعا ويقينا من يشكك فى عطاء أرض الكنانة للإسلام، وانتمائها لحقائقه وثوابته، ويشهد على ذلك الطريق الوسطى الحامل لجوهر الإسلام فى الاعتماد على القرآن والسنة، والذى تبناه الأزهر فى ضمير وواقع الأمة المصرية والعربية والإسلامية، وتعمل على أساسه وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ودار الإفتاء وفق منظومة جامعة مرتكزة على صحيح هذا الدين وعلى هدى من النص والعقل فى غير غلو ولا تفريط، ولا جمود على النص أو مصادرة له، ودون اشتطاط فى الفهم وانفلات عن المقاصد والغايات، وفق الحقيقة المقررة: صريح المنقول لا يتعارض مع صحيح المعقول.

ويبقى الماضى والحاضر والمستقبل بمشيئة الله برهانا صادقا على أن مصر الأزهر وفيه لهذا المنهج الذى جعلها قبلة العلم الدينى المعتدل بآفاقه الرحبة فى دراسة الفرق والمذاهب فى علم الكلام، مذهب أهل السنة والمعتزلة والفرق والنحل الأخرى، بما يغرسه من تكوين وتمكين لأصول الدين الصحيح وكذا دراسة المذاهب الفقهية، سواء المذاهب

السنية الخمسة الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى والظاهرى، ومذهبى الشعية الإمامية الجعفرية الاثنا عشرية، ومذهب الشيعة الزيدية، وكذلك المذهب الإباضى، وهو المنهج الذى شكل شخصية ثرية منفتحة على فكر الآخر، متسامحة فى رؤيتها ورؤاها، وتؤمن بحق كل شخص وجماعة فى التعبير عن فكرها، بعيدة عن التطرف والانغلاق فى تسييرها للأمور.

ولم يقتصر أثر هذا النهج على الفكر والعقل، وإنما امتد إلى الواقع والسلوك فأفرز تسامحا وأخوة دينية ومجتمعية بين المسلمين والمسيحيين على مدى العصور والأجيال، وأنتج تعايشا آمنا مطمئنا بين عنصرى الأمة، فوجد نسيجها منذ وطأ الإسلام أقدامه على تراب مصر، ووعى المسلم قول الحق تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[سورة المائدة: الآية ٨٢] فهذه المودة والألفة هى مادة التعايش بين المسلم والمسيحى على أرض الكنانة.

ومنذ النشأة الإسلامية الأولى، لم يكن هذا التعايش قائما على الشعارات وترديد النصوص التى تقيم أسس الشراكة الدينية والوطنية فقط، وإنما أيدتها وتزامنت معها مرتكزات قيام مجتمع سليم، نقتطف منها انتصار الخليفة عمر بن الخطاب لحق القبطى الذى شكى إليه واليه على مصر، عندما ضرب ابن عمرو بن العاص القبطى، فحكم له عمر بأن يضرب ابن عمرو كما ضربه، بل وقال له: اضرب عمرًا نفسه، فإنما ضربك بسلطانه، فرد القبطى: «قد ضربت من ضربنى»، ثم أطلق عمر مقولته النابعة من صريح نصوص القرآن والسنة: «متى استعبدتم الناس

وقد ولدتهم أحرارا» وكان ذلك قبل الثورة الفرنسية وشعاراتها المعروفة: الإخاء والحرية والمساواة، وقبل أن يصوغ فلاسفة ومفكرو النهضة الغربية الحديثة نظرياتهم التى يتأسس عليها نظام الحكم والاجتماع السليم، نذكر منهم روسو، ومونتسكيو، ولوك، قبل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواثيق الدولية التى تتجاهل ذلك الإنجاز الإسلامى الذى كان أحد نماذجه ما وقع على أرض الكنانة.

كانت المشاركة المجتمعية للمصريين جميعا وبناء علاقاتهم فى أجواء آمنة يظلها التسامح، والالتفاف حول مصلحة الوطن هو القوة الفولاذية التى تحطمت على صخرتها كل محاولات الوقيعة والفتنة، وهى الضمان فى ذات الوقت لأن تتبوأ مصر موقع الريادة ويشار إليها بالبنان فى ثبات خطواتها، وكونها النموذج الذى يتبع فى عمق الفهم المستنير للدين والوعى بحقائق الاجتماع الصحيح، والعمل البناء لتحقيق المصالح الحياتية فى ظلال الأمان الذى بشر به القرآن الكريم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٩]. ولا شك أن الشعب المصرى بمسلميه ومسيحيه، وبقيادة المؤسسة الدينية الأزهر والأوقاف والإفتاء والكنيسة الأرثوذكسية والكنائس المصرية الأخرى تقوم بمسئولياتها فى قيادة هذه المسيرة الظافرة، وبوعى القيادة والاستنارة المجتمعية، وحرص الجميع على المصلحة القومية، يستطيع أن يجهض أية محاولة خبيثة وماكرة للنيل من وحدة هذا الوطن، وأن يجعل من الهوية الدينية للمصريين ركيزة للتماسك الاجتماعى والانطلاق على طريق التقدم والريادة، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

وعلـــى الجانب الآخر، فـــإن قوة مصر تتكامل بعطائها ومســـاهمتها الفاعلـــة فى قضايا أمتها العربية والإســـلامية، وهو جـــزء لا يتجزأ من انتمائها لدينها وعالمها العربى والإسلامى، ولم ولن تنسى مصر واجبها على ذلك الطريق، باعتباره قدرًا مقضيّا وواجبا عليها يشهد عليه التاريخ والواقع المعاصر.

* * *

ترسيخ دين الوسطية

الدين الإسلامى خصه الله تعالى بأن يكون ختام أديان السماء، ونهاية المطاف فى الرسالات الإلهية للإنسانية جمعاء، والأصل الجامع لهذه السلسلة الذهبية فى هداية الله للبشرية عبر الرحلة الطويلة لسيرة ومسيرة الفرد والأمم الضاربة فى أعماق الزمان والمكان، منذ أن كان الإنسان يهيم على وجهه فى الضلالات وتسيطر عليه الأهواء والنزعات، ويدور فى فلك الظلمات والجهالات إلى أن جاءه الله بالدين ليملأ حياته بالهداية والنور فأشرق قلبه وعقله على تجليات الله فى الكون، وتفتحت بصيرته على حقائق العبودية لمالك هذا الكون وسيده ومولاه، فاستشعر جلال الإله الأعظم، وانقشعت الغشاوة من على بصره وقلبه، وذلك هو النبع الصافى لرسالات السماء.

أدرك الإنسان موقعه فى هذا الملكوت الواسع بين السماء والأرض، كمخلوق أنعم الله عليه بالعقل ليدرك سر الوجود حوله، ويتعرف إلى نعم العطاء الإلهى فينغرس فيه الإيمان بالخالق الواحد الذى سخر وهيأ له كل هذا الوجود بما فيه من كائنات وموجودات، فيوقن بجلال المعطى المانح، فينقاد إليه مسلما الوجه لله، مخلصا العبادة له، عن يقين وثقة وتسليم.

صاغ الإسلام جوهر الأديان جميعها فى تجلياته الدينية، وبلور العمد الأساسية التى شيدت عليها بلا إفراط ولا تفريط وبلا انحراف

ولا تزييف، فقد جاء مصدقا للأديان السماوية اليهودية والمسيحية، كاشفا عن كنوز رسالات الأنبياء كلهم بدءا من أول هذه السلسلة من نوح وإبرهيم أبى الأنبياء إلى موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، فأحكمت به الرسالات واكتملت به الهدايات فكان العاقب الذى لا نبى بعده.

وجاءت معجزة المعجزات القرآن شاهدة على صدق الأديان الإلهية والبعثات الرسولية لرسل الله إلى الناس: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[سورة الشورى: الآية ١٣].

وإنما نص هؤلاء الرسل دون إخوانهم ممن بعثهم الله للخلق باعتبارهم أولى العزم بين الرسل والأخيار منهم، وأقواهم قياما على أمر الله، وأكثرهم معاناة وجلدًا وصبرًا فى الجهاد لهداية الخلق ونصرة الحق.

يشير هذا البلاغ القرآنى الجامع للأديان، المعترف بنبوة قادة الرسل أولى العزم أن الإسلام جاء ليجمع الناس والأتباع على مبادئ الدين القويم، فهو يؤمن ويصدق بما جاءت به من تصحيح العبادة بالله الواحد الأحد وطرح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة عن صاحب هذا الوجود، رب الملك والملكوت، ويأمر المسلمين بأن يؤمنوا بالرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر، وتلك هى صورة الدين كما أرادها الله، إنه يجمع ولا يفرق، ويصحح ويسدد ليلتقى مع الأديان والرسالات فهو لا ينكر دينا منها، وإنما يقررها ويؤيدها ويقيم صروحها ويشيد عمدها جميعا فى منظومته الدينيه.

وعلى وفق هذا المعلم الرئيسى أعلن رسول الإسلام ﷺ عن مكانته ووضعيته بين الأنبياء والرسل فيما روى عنه ﷺ «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فجمّله وحسَّنه إلا موضع لبنة، فصار الناس يطوفون ويقولون: لولا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وهذا المنظور القرآنى والنبوى هو تأسيس لطريق الإسلام فى الدين والحياة على منهج الوسطية الذى يرفض الجمود والغلو، ويتخذ مكانة كأصل للوسطية فى الفكر والحياة، وعنوانا على السداد والمقاربة فى غير تفريط فى ثوابت الرسالات وحقائق الإيمان.

وهكذا تتضح رؤى الدين الإسلامى، كدين يحمل التجليات الإيمانية للأديان السماوية، فيعرف بها ولا ينفى أيّا منها، ويقر بنبوة رسلها، ولا يجحد دور أى منهم، ويطلب إلى الناس جميعا أن يعتنقوا هذا الإيمان بالدين، لما يؤدى إليه من التفاهم والتآلف والتعايش، والأمر الذى يجعل من واجب المسلمين أن يتعايشوا مع المخالف، وأن يحترموا ما يؤمن به، فلا يتنافروا أو يتناكروا له، كحق اختاره لنفسه. هذا التأصيل للدين يجعل الأديان سبيلا للتلاقى والاجتماع والتعاون، وليس كما يروج الملاحدة واللادينيون أنها وسيلة التفرق والخلاف والتنازع والصراع، أو ما ينادى به دعاة فكر الهيمنة والاستعلاء والصدام والمواجهة بين الأديان والثقافات والحضارات، كما يعبر عنه فكر العولمة الجديد، الذى عبر عنه صمويل هنجتون فى كتابه: «صدام الحضارات» ومن سار على دربه، وروج لأطروحته وهم كثير.

ولا شك أن هذه المقولات والدعوات تتعارض تماما مع أصول الإسلام وطريقته فى الحياة ورسالته للناس، ففكرة الدين أوجزها الرسول ﷺ بقوله: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة» والمراد بسددوا أى الزموا الحال أو الطريقة الوسط، والتقريب يكون بالتوسط، والتقريب يكون بالتوسط بين طرفين، فيكون الإلحاد وإنكار الدين مرفوضا ومعارضا للفطرة السوية، والانحصار فى فكر الاستعلاء والاستكبار بغيض وممقوت ويؤدى إلى سحق الآخر وإخضاعه بكل سبيل.

وفى المقابل يكون الجمود على فكر يدعو فيه بعض أدعياء العلم أن على المسلم أن يهجر الحياة، ويرفض الناس، ويكفر أهل القبلة، بزعم أنه يفر من الغواية والآثام والشرور، وبدلا من أن يسعى لعمل الخير والزود عن طريق الحق والعدل والرشاد، وهو مسلك ينطوى على انحراف وهروب من مواجهة الواقع وتصحيح المسيرة والجهاد فى الحياة، وأباطيل وزيغ عن الفهم الصحيح للدين.

يؤكد هذه الطريقة كما يعلمها الرسول ﷺ لأرباب العلم من الأمة، بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدولة، ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين».

وفات هؤلاء الذين يحسبون أنهم الأوصياء على الإسلام المحتكرون للفهم الصائب والسديد فيه، أن صنيعهم فى التعصب للرأى وتكفير أو تفسيق المخالف أو معاداة أصحاب الدين الآخر، يناقض صحيح الإسلام، ويورطهم فى ذنب عظيم، فالإسلام مصدره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإيمان بالوحدانية، والشهادة لمحمد بالرسالة.

فهـذا كاف فى الانخراط ضمن جماعة المسـلمين، كما أنه غفل أو جهل بقول الراسـخين من أهل العلم، فقد ذهبوا إلى أن المسلم إذا قال قولا يحتمل الكفر من تسـعة وتسـعين وجها، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل حاله على الإيمان والإسـلام «كما أشـار إليه أبو الحسـن الأشعرى».

كما فهمـوا أن الإيمان لا يكفى أن يضم بين جنبات المؤمن، ويبقى فى أعماقه، دون دليـل عليه من العمل الصالح للدين والدنيا، فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وهو ما يؤيده فكر الوسطية والتوازن فى الدين والدنيا، وبين الإيمان والعمل.

فالمسـلم مأمور بأن يعتصم بإعلاء شـعار الإيمان الحق وهو لا إله إلا الله، والعمل من أجل إصلاح حياة الناس، يقول الرسـول ﷺ: «الإيمان بضع وسـبعون شـعبة: أعلاها لا إله إلا الله وأدناهـا إماطة الأذى عن الطريق».

* * *

دعاة الفتنة

يصاب المسلم بالحيرة، وتنتابه حالة من التوهان والتشكك من هول ما يسمعه وما يشاهده من أحداث جسام تقع من رجال يقومون بالدعوة إلى الإسلام وسط أجواء غاية فى الصعوبة على الوطن والمجتمع، لما تنطوى عليه من ممارسات عدوانية ضد الأفراد والمنشآت، تسبب الفزع والرعب بين جموع الناس، وكأنهم ناطقون بالحق الإلهى يتمثل ذلك فى صراعات تيارات مذهبية تتزاحم على الفوز بتأييد جموع المسلمين، حول الفكر الذى تدعو إليه فى قضايا فرعية، ومسائل أخلاقية، يحاولون فرضها على الناس، توصلا إلى طموحات وأغراض دنيوية وأهواء شخصية، وكأنها نذير الفتنة التى حذر منها الرسول ﷺ [عن حذيفة بن اليمان، كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، فقلت يا رسول الله: إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال نعم، فقلت له هل بعد هذا الشر من خير؟ قال نعم، وفيه دخن، قلت وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتى ويهتدون بغير هديى تعرف منهم وتنكر، قلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال نعم: دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت يا رسول الله: صفهم لنا؟ قال نعم: هم قوم من جلدتنا أى من أنفسنا وعشيرتنا ويتكلمون بألسنتنا، فقلت يا رسول الله: وما ترى إن أدركنى ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة وإمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق

كلهـا، ولو أن تعض على أصل شـجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك][1].

فلا تعبأ هذه الجماعات الإسلامية بما تحدثه من بلبلة وتشويه لدين الفطرة، ولجوئها إلى أساليب لا تتفق وصحيح الدين تثير الفتنة، وتنشر الرعب والفزع فى أوساط الناس.

إن رءوس هـذه الجماعـات التـى تتحـرك يمينا وشـمالا، تتحمل المسـئولية أمام الله والأمة عن الخلل والاضطراب والفتن التى تسفر عن دعواتهـا، والغريب أنها تتزاحم كل منها مع الأخرى بغية إزاحتها من طريقها والانفراد بالساحة وحدها.

وهـو ما نجده فى بروز دعوات جماعة السـلفية والصوفية والإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية والقرآنيين وغيرهم، وهى إذ تحرص على تحقيـق أهدافها ترفض أو تتباعد عن بعضها البعض، متلفتة عن أصول الإسلام وثوابته.

وكأن هذه التيارات تراهن على تفتيت الصفوف، والانشقاق عن الجماعة وأهل السنة الذين ينحازون إلى الإسلام بالفطرة، ويقومون على الأركان والشـعائر، يؤمنون بالله ربا وبالإسـلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبالقرآن دستورا وهو إيمان الفطرة الذى يسأل المسلم ربه أن يرزقه إياه.

والمتابع للمشـهد الراهن، لحال المجتمع والأمة، يجد دعوات هنا وهناك تكرس الفرقة والانقسـام، بين أبناء الدين والوطن وتكشـف عن التشرزم والطائفية إلى حد يثير الشكوك والبلبلة.

(١) صحيح مسلم – كتاب الإمارة رقم ٢٣١.

وهذا الوضع أدى بالعلمانية واللادينيين إلى ترويج مقولات زائفة، تمس دعامة إسلامية أن هذا الدين جاء بفكر التوحد والجماعة، وأنه حرب على الفرقة والتشيع، بل ويشوه معلما إيمانيا وقيمة حضارية، وكأن الدين دعوة إلى الانشقاق والخروج عن رابط الجماعة والحروب المذهبية.

ابتليت المجتمعات الإسلامية بفكر خوارج جدد يتصدرون المشهد، منطلقين من جماعات ترفع شعارات مذهبية باسم الإسلام تعمد إلى فرض الرأى والتعصب لفكر بذاته، تحت ذريعة إنكار المنكرات، وتخليص المجتمع من الشرور والموبقات بالقوة والعنف ولو أدى ذلك إلى الفتنة وتعميق الفرقة، وانتهاج طريق المواجهات وما يؤدى إليه من زعزعة الاستقرار فى المجتمع، وما ينتج عنه من إراقة الدماء.

ويسوق هؤلاء تبريرا لأفعالهم فى الانقضاض على الأمن والسلام، باستخدامهم العنف فى أنهم يعملون على تطهير المجتمع من الشرك والجاهلية، وتنقية الدين من البدع والخرافات، لتبرير سلوكياتهم التى تتسم بالغلو والشطط، وشغل الناس بالمسائل الفرعية والدعاوى الخلافية، وصرف المسلمين عن القضايا الكلية والثوابت الدينية، وما يبعث على نهضة الأمة وقوتها وريادتها بين الأمم.

وهم فى هذا الطريق يرمون المجتمع بالغواية والضلال وأنهم بذلك يعيدون الأمة إلى حظيرة الإسلام، فهم الملاذ والإنقاذ الذين أوتوا العلم والحكمة والرشاد فى الأمر غير مكترثين بالسواد الأعظم والجماعة، لأن جمهور المسلمين لا سبيل لهم للنجاة والعودة إلى حظيرة الإسلام إلا بالانخراط فى جماعتهم وسلوك سبيلهم ورفع شعاراتهم

فهـذا الجمهور الأعظـم لا وزن له عندهم، وإن كانـوا هم الجماعة والسـنة وقد سـئل الإمام مالك عنها فقال: «أهل السـنة ليس لهم لقب يعرفون به»[1].

ومكمن الخطورة فى مسـلك هذه الجماعات أنها تمارس فكرها باسم الدين، بما يضفى القداسـة ويوجب الطاعة ويحيى مبدأ الدولة الدينية فهى تحتكر تفسير النص الدينى، وتقدم نفسها على أنها حامية الدين، ومالكة ناصية فقه الشريعة، ووصم جمهور الأمة بالضلال والانحراف عن طريق النجاة والإنقاذ، ونعتهما بالفسق والعصيان والتكفير.

وقد كثرث هذه الجماعات الداعية إلى فكر المذهبية والفرقة الطائفية فى الآونة الأخيرة، وتعددت أسـماؤها، واتخذت أسـماء ونعوتا تحوز الاحتـرام والمرجعية، وإن سـلكت مسـالك بعيدة عـن جوهر الدين، ووسـطيته، واعتداله، وتشـعبت بالإسـلام إلى دعاوى تنحرف به عن سماحته ويسره. أفلا يعقل هؤلاء الفرقاء، أنهم بصنيعهم فى أنهم الأمناء وحدهم على الإسـلام الفاقهون دون سـواهم لنصوصـه، أصحاب الحق فـى الأمـر والنهى وإقامة الحدود الشـرعية، يغتصبون سـلطة الدين، ويعيدون المسلمين إلى مجتمعات الفوضى، وينحرفون عن إسلام الرحمة والسماحة إلى دين قسوة وعنف وصراع وكراهية.

فمـا بال هـذا الخلل الذى يطفو على السـاحة، ويعتنـق فكر الغلو والتشدد والتطرف والتعصب فى المجتمعات الإسلامية الحديثة لا يدرك تأثيراته السلبية فى إعاقة التقدم، وأنه عنوان على التخلف والانهزامية فى العالم الإسلامى؛ فالساحة مليئة بالنعرات والأفكار الدائرة فى حلقة

(١) رواه ابن عبد البر.

مغلقة يصارع كل طرف منها الطرف الآخر، يبغى الزعامة والشهرة وتحقيق مطامع دنيوية خاصة، ليس لنهضة الأمة فيها نصيب، وليس أضر على الأمة وأدعى إلى إثارة النزاعات فيها من شق صفها، وبلبلة فكرها وتمزيق وحدتها، وإشاعة الفتنة فيها بآراء مذهبية والتخندق حول أقوال خلافية، بغية حمل الناس على الإلتزام بها، واعتبارها الحق الذى لا مغزى عنه، والالتجاء إلى التخويف والتهديد والوعيد والقهر كوسيلة لفرضها، وكأنها دين حادث الأمة عنه، والصواب الذى يتعين المصير إليه عندهم وحدهم باعتباره طريق الخلاص من الشرور والآثام وطوق النجاة والصلاح.

وموقف الإسلام من الفتنة والطائفية معروف مشهور إذ إن «الفتنة أشد من القتل» فقد حذر الإسلام من دعاوى الطائفية، ونهى عنها بنصوص قطعية، وأدان أصحابها وتوعدهم بالخسران والعقاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣].

وفى حديث الرسول ﷺ [من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة الجاهلية][1].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة – باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ٢/٦ ح (٤٨٩٢).

إن ما يجرى على الساحة من التعصب لأراء مذهبية واجتهادات فردية، هو التنطع والجمود الذى ينافى الاجتهاد الذى هو طريق فهم النصوص وبيان دلالتها وحكمتها وبه كان ثراء الفقه، وتحقيق المصلحة العامة. لكن يسعى هؤلاء إلى فتح أبواب جهنم وإراقة الدماء، وتوجيه الأمة الوجهة الخطأ وإيقاعها فى الخطيئة.

وما درى أصحاب هذه الفرق – الخوارج الجدد – أنهم ينفرون الناس عن الإسلام ويطمسون معالم الرحمة فيه، بسلوك سبيل التفسير والتشديد وهذا ما حذر الرسول ﷺ من الانزلاق إليه والتردى فيه: هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، قالها ثلاثًا.

وأكد على أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرا أبقى".

ولم يفقهوا تنبيه الرسول على أن الدين فيه العصمة من مفاسد الفرقة والفتنة والفشل والهزيمة، ويتأتى من خلال لزوم طريق الجماعة، كما أنه كشف الحجب وشدد على خطر الفرقة فى الدين، وأن فيها الهلاك والفتن.

[افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة، والذى نفس محمد بيده لتتفرق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار. قيل يا رسول الله من هم قال الجماعة][1].

وهى الجماعة التى تعتصم بهدى القرآن والسنة وتنخرط فى زمرة المجموع، وتسلك سبيل الوحدة والائتلاف وتؤمن بالسلام الاجتماعى،

(١) صحيح ابن ماجه كتاب الفتن، باب ١٧، ح (٣٩٩٢).

والسماحة فى بناء العلاقات بين الأفراد والإخوة بين جماعة المؤمنين، وأن الإسلام جاء للتوحد وجمع الشمل، وترسيخ السكينة والأمان، وأنه دعوة إلى الإيمان، وثورة على الفساد والاستبداد، وهو شريعة التمسك بالحق والعدل والكرامة والحرية، وهى أصول دينية قبل أن تكون حقائق للاجتماع الإنسانى.

أسباب تفشى الطائفية والعنف:

- الأمية الدينية والأميات الأخرى.
- قصور التربية الدينية.
- غياب ثقافة الجماعية والعمل بروح الفريق.
- التخلف الاقتصادى.
- ضعف التربية المجتمعية وفكر الانتماء.
- تغيب الحوار المجتمعى.
- الغزو الفكرى.

السلفية نموذجا

السلفية الحديثة قامت على دعوة محمد بن عبد الوهاب فى عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية ومن آرائه: إن المسلمين قد رجعوا إلى الوثنية الأولى بتعظيم الأضرحة والقبور، وصرف العبادة لها من دون الله.

حكم على المتوسلين إلى الله بالأولياء والمشاهد بالشرك الظاهر الجلى[1]. السنة المطهرة والحديث الضعيف مقدم على الرأى.

تعطيل أسماء الله وصفاته بالتأويل.

(١) محمد عمارة، السلف والسلفية، ٢خ ٠٠٨، ص٥٦، وزارة الأوقاف.

قــام يدعو إلى تجريد التوحيد، وإخــلاص العبادة لله وحده، ونفى الشفاعة والتوسل.

كان يصف من يستغيث بالرسول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٣٩].

وفى تفسيره للشهادة بالوحدانية والرسالة، يقول: فإن لا إله إلا الله: نفى وإثبات، فلا إله تنفى جميع المعبودات، «وإلا الله ثبت العبادة لله»[1].

ومن أصول الإسلام عند عبد الوهاب:

لا يدعى إلا الله.

ولا يذبح ولا ينذر إلا له سبحانه.

وأن التبرك بالرسل والأولياء والصالحين ضلال وزور وبهتان.

ويؤيد قوله بآيات من القرآن: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٠].

ومن عقيدة الإيمان أن الله نزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييــف والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فهــو صاحب الجلال بلا عديــل ولا نظير بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠].

ويبرأ من عبادة ما سوى الله كائنًا من كان، ويقيم الحجة على ذلك: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[سورة الأعراف: الآية ٥٩].

---

(١) الشيخ محمد عبد الوهاب: عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية للشيخ أحمد بن حجر آل أبو طامى آل بن على، ص١٠، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٤].

وما روى من حديث: «لولاك لولاك، لما خلقت الأفلاك» فهو حديث باطل.

كان ابن عبد الوهاب يصور حال المسلمين بما يصدق عليهم: الحديث الصحيح: [لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتموهم][1].

وحديث: [لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وأنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى][2].

وحديث: [بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبًا فطوبى للغرباء][3].

المجاهرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باليد واستخدام القوة. إقامة الحدود، حتى أقام الحد على امرأة اعترفت بالزنا. هدم الأضرحة والمزارات، فهدم قبة على مقبرة زيد بن الخطاب. وهذا الصنيع فى إثارة الفزع بين المسلمين، بحجة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يدخل فى المنهيات لما يترتب عليه من الأضرار والمفاسد، وينبغى أن يترك لولى الأمر، والسلطة العامة، وهو ما نص عليه ابن تيمية: «وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه، مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق، أو يجلد الشارب ويقيم الحدود، لأنه لو فعل

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب، باب ١٤ح (٧٣٢٠).

(٢) رواه الترمذى حديث رقم ٢٢١٩، وقال حديث حسن صحيح.

(٣)صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب ٦٥ح (٣٨٩).

ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد، لأن كل واحد يضرب غيره يدعى أنه يستحق ذلك، فهذا ينبغى أن يقتصر فيه على ولىّ الأمر» حتى لا تعم الفوضى، وينتشر الخوف بين الناس.

ويؤكد ابن تيمية على أن الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف بقوله: «وإذا كان هو من أعظم الواجبات أو المستحبات. فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع».

* * *

الأزهر وبعث النهضة

يمضى الأزهر الشريف فى موكب الخلود، يتصدر قافلة النهضة للدولة المصرية ولشعوب العروبة وأمة الإسلام، مرتكزا على أصول الشريعة وثوابتها القطعية، ومقاصدها الكلية فهو بما لديه من سجل ناصع فى خدمة الدين والعلم والمجتمع وما يقدمه من إسهامات علمية وحضارية ومجتمعية، تتجلى فى نقل فكر الإسلام من معينة الصافى فى علوم العقيدة والشريعة، واللسان العربى، وفى اتصاله بعلوم ومعارف العصر العلمية والتقنية والإنسانية.

ولقد كان لجهود شيوخه وأئمته الأعلام النصيب الأوفى فى بعث الروح الإسلامية فى النفوس، ورسم معالم الطريق، وبيان هدى الإسلام فى قضايا الدين والعلم والوطن، يجدد أمر الدين، ويتبنى الوطن، ويعبر عن هموم أمة الإسلام، ويقود مسيرتها فى أحلك الظروف وأصعب الأوقاف، يبصرها إلى سلوك الطريق القويم، ويضع لها خطة ترسم المعالم التى تهتدى بها، وتحدد البرامج والخطوات لتصل إلى ماتصبو إليه من التقدم والنهضة.

وفى سجل الأعمال الخالدة، قدم الأزهر مبادرته حول الدولة المصرية من منظور الشريعة الغراء، ورؤى العلماء والنخبة المثقفة، وتطلعات المصريين بعد ثورة ٢٥ يناير، وعلى هدى عطاء ومنجزات دولة الإسلام عبر تاريخ ناصع فى تعايش سلمى بين البشر على اختلاف.

أديانهم وأجناسهم وقومياتهم ومراكزهم الاجتماعية وفى أجواء من حرية الفكر وإبداع العقل، وحصاد علمى فى العلوم والفنون والحضارة.

فى ضوء ذلك أصدر الأزهر وثيقة حول مستقبل الأمة، نعرض لأبرز نقاطها:

١ – أبانت وثيقة الأزهر طبيعة الدولة فى الشريعة، فهى دولة وطنية دستورية، وليست دولة دينية، كما قد يزعم البعض، فهى تقوم على دستور يتوافق عليه الشعب، يحدد إطار الحكم ويبين الحقوق والواجبات، على قدم المساواة، وأن يكون الشعب بإرادته الحرة، هو القائم على سلطة التشريع فى نطاق المبادئ العامة للشريعة، وبما يضمن تفعيل مبدأ المواطنة. ذلك أن إرادة الأمة معتبرة فى الشرع بحديث الرسول ﷺ لا تجتمع أمتى على ضلالة.. والاجتهاد طريق لاستنباط الأحكام فى الشريعة مع النصوص.

٢ – وتحسم الوثيقة رأى الشريعة فى النظام الديمقراطى فى صيغته الراهنة بالانتخاب الحر المباشر، وتعلن عن توافقه مع نظام الشورى الإسلامى، وتصفه بأنه الصيغة العصرية لتحقيق مبادئ الشورى، بما يضمنه من تعددية ومن تداول سلمى للسلطة، وإعمال سلطة الرقابة والمحاسبة، وتوخى منافع الناس ومصالحهم العامة، وخضوع الجميع لسيادة القانون حفاظا على الشريعة، ومكافحة الفساد. ومعلوم قيمة الشورى، فأمور الجماعة تجرى على الشورى والرأى الحر، يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[سورة الشورى: الآية ٣٨] وكان النبى ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه.

٣ – الإلتزام بمنظومة الحريات الأساسية فى الفكر والرأى يعتبر بندا رئيسا، فتشدد الوثيقة على احترام حقوق الإنسان ومبدأ التعددية واحترام الأديان السماوية والمقدسات الدينية: يقول تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[سورة الكافرون: الآية ٦] ويقول عمر: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» ونلمس فى هذا البند التوازن ورعاية الحقوق والحريات جميعا للفرد والجماعة بعضها البعض. وكذلك الحرص على صيانة حرية التعبير والإبداع الفنى والأدبى بما لا يتعارض مع القيم الحضارية. لأنها اجتهاد عقلى تثرى به الحياة وتتقدم.

٤ – وتتطرق الوثيقة إلى تجريم الفتنة الطائفية والدعوات العنصرية باعتبارها جريمة فى حق الوطن، والتأكيد على حق الاختلاف والرأى الآخر شريطة الإلتزام بآداب الاختلاف واجتناب دعوات التكفير والتخوين، واستغلال الدين واستغلاله ستارا للتحريض على الطائفية وبث روح العداء بين أبناء الوطن وحل المشكلات من خلال الحوار المتكافل والبناء.فقد حرم الإسلام الفتنة وحذر من تداعياتها بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[سورة الأنفال: الآية ٢٥] ودعا إلى الحوار: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[سورة النحل: الآية ١٢٥].

٥ – وتؤكد الوثيقة على احترام كرامة الفرد والأمة المصرية، والمحافظة على العزة الوطنية، وقدسية دور العبادة، وضمان الممارسة الحرة للشعائر الدينية.

والكرامة فى الإسلام للناس جميعا، لقد كرمنا بنى آدم فلا فرق بين شخص وآخر على الإطلاق.

ولا شك أن فى تحقيق الكرامة للفرد والعزة الوطنية، وصيانة دور العبادة وتمكين المؤمن من أداء شعائر دينه، فيه إحياء لنفس الإنسان وضميره، وآمان وسلام بين أبناء الوطن، وجماعة المؤمنين.

فهذا دأب مجتمع المؤمنين فى الأمن والسلام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[سورة الأنعام: الآية ٨٢].

٦ – توجيه الجهود نحو التنمية والبناء عن طريق تفجير طاقات المجتمع وإبداعاته فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تأسيسا على فقه الأولويات التى تجعل العمل والتنمية هى قاعدة الانطلاق إلى التنمية، وتحقيق مطالب المجتمع، وفقا لمبدأ العدالة الاجتماعية ورعاية الفقراء ومحدودى الدخل، وتوفير فرص العمل للمواطنين. فقد خلق الله الإنسان ليبنى وينمى الكون، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[سورة هود: الآية ٦١]. يعنى طلب منكم إعمارها.

٧٧ – دعم علاقات مصر فى محيطها الجغرافى والإقليمى والإسلامى، بواسطة إقامة علاقات متينة مع بلدان العروبة، والقارة الإفريقية، والعالم الإسلامى، والانفتاح على المجتمع الدولى والنظام الأممى، والمشاركة فى المسيرة العالمية والجهود الإنسانية، إيمانا بعالمية الرسالة الإسلامية على أساس التكافؤ والاستقلال والمصلحة، وهو مجمل الرسالة الإسلامية فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة الأنبياء: الآية ١٠٧].

٨ – متابعة الإلتزام بالمقررات الدولية والمواثيق العالمية، والتعاون

على ما فيه الخير والمصلحة للأمم والشعوب، تأكيدا لمطلب الشريعة فى إرساء دعائم السلم والأمن الدوليين.

ذلك أن الإسلام يوجب الإلتزام بالمعاهدات فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[سورة الإسراء: الآية ٣٤].

ويدعو القرآن البشرية إلى الحرص على السلام كمطلب إلهى، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[سورة البقرة: الآية ٢٠٨].

٩ – التنبيه إلى تحصيل العلم وسلوك طريق البحث العلمى، باعتباره قاطرة التقدم، ومشروعًا قوميًا وحضاريًا لازمًا لبناء مجتمع النهضة، وهذا لا يتحقق إلا بمحو أمية الإنسان المصرى وتنمية الموارد البشرية للانطلاق إلى طريق التقدم والرقى.

وقد حث الإسلام على العلم، وارتقى به إلى مرتبه الفريضة، فهو دعاء المسلم فى كل وقت: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[سورة طه: الآية ١١٤].وجعله فريضة حتمية، يقول الرسول ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم» والمسلم يشمل الذكر والأثنى.

تلك أهم بنود الوثيقة، التى جاءت ترجمانا لفقة الشريعة، ورسالة الإسلام الحضارى، وتعبيرًا عن الدور المصرى المحلى والإقليمى والعالمى، واستمرار الأزهر الشريف فى عطائه المتواصل لخدمة الدين والأمة، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

* * *

إسلام وسط الحصار

مــن حق الإســلام كدين وثقافة وحضارة أنزلــه الله تعالى ليكمل به الأديان الكتابية السابقة عليه بفكر التوحيد الذى جاء به الخليل إبراهيم عليه السلام، أن تتاح له فرصة التعبير عن جوهره، والتعريف بمبادئه، وأن يطلع الناس على إنسانية الرسالة المنزلة على محمد – صلوات الله وســلامه عليه – وأن يعامل المســلمون باحترام وأن تكفل لهم حقوقهم على سواء مع إخوانهم فى الإنسانية على امتداد العالم.

لقد شــاع ضد الإســلام ألوان من سوء الظن والشــك والاتهام والعداء حتــى راحت القوى الكبــرى فى عالم اليوم تدق طبــول الحرب وتزرع ألغام الصراعات فى أوطان هذا الدين وضد أتباعه، وعمّت فرية الإرهاب والعنــف والكراهية ورفض الآخر الأبــواق العالمية، من خلال ما يملكه الغرب من آلة إعلامية جبارة، لا تتوقف عن الحديث المســئ والمشوه عن الإســلام، فى لغة تحريضية فجة تنســب كل المعايب والسلوكيات الهمجية تجاه كل ما يتصل بالإسلام.

لقد اعتبرت الحضارة الغربية أن الإســلام المنســوب فى زعمهم إلى محمد ﷺ وهو الصك الذى صكه المستشرقون باسم المحمدية وإلى هؤلاء البــدو من العرب القابعين فى جزيرة العرب، انتقاصا من المســيحية، وخصما من رصيدهم فى الهيمنة والسيطرة على مقدرات العالم ومصيره، وأنــه مــا كان يجوز لهذا الديــن ولا لذلك النبى وأتباعه المســلمين أن

يعلنوا عن هذا الدين، ويقوموا بنشـره، مما أدى إلى أن يقوض الوجود المسـيحى، ويستولى على الحضارة الرومانية سـليلة الحضارة الغربية الحديثة، ويفرض وجوده ورسالته على الناس، كدين عالمى.

ومكمـن الخطـأ فى هذا الفهم للإسـلام ولنبيه وأتباعه أن الإسـلام والمسـلمين، لم يكن ثورة محلية أو حركة داخلية، ولا مطلبا قطريّا ولا مذهبا قوميّا، جاء لطموحات شـخصية أو لمطامع مادية أو لتوسـعات إقليمية، ومنافسـات على زعامة أو سـيطرة ونزعات عدوانية كما يحلو للغربييـن أن ينعتوا هذا الدين ويلصقوا به كل ما هو غير إنسـانى وغير حضارى، حقيقة الأمر والقطب الأعظم فى الإسلام الذى لا يفسح مفكرو الغـرب وأقطابه وصانعوا القرار فيـه أن يتفهموا قوته وحيويته أنه دين بالمعنـى الكامل لهذا المصطلح كمنظومـة جامعة للإيمان بالإله الخالق الحقيق بالربوبية وبالرسـل جميعا وبالكتب المقدسـة والملائكة واليوم الأخر،وهو الدين الشـامل الـذى جاء به النبى وحمـل المؤمنون لواءه من بعـده: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[سورة البقرة: الآية ٢٨٥].

كما أراده الله نهوضا وارتفاعا بالإنسـان، وإسعاد البشر وإقامة نظام يتكامـل فيـه الدين باعتباره وضعـا إلهيا مع الحيـاة بإعمال الملكات والقوى التى خلقها الله تعالى فى الإنسان.

وعلى هذا النسق من الاعتراف بالأديان الكتابية اليهودية والنصرانية كانت دعـوة أتباعهما إلى الإيمـان بالله، وضرورة التعايش السـلمى،

وحمل رسالة دين الله إلى العالمين فى كل أرجاء الأرض، والتحرر من كل ما سوى الله، والتعاون على إرساء هذه المفاهيم الواضحة فقد دعا القرآن المسلم والمسيحى واليهودى إلى الالتفاف حول هذه رسالة والعمل وفقا لتلك الدعوة، فى ذلك النداء الرحب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[سورة آل عمران: الآية ٦٤].

وما ذلك إلا لأن الإسلام هو الدين الجامع لأديان الله والرسالة الخاتمة إلى البشر، ينبع من مشكاة واحدة، هى النور الإلهى، الذى وجد غرسه الأول فى دعوة نبى الله إبراهيم عليه السلام.

وعلى هدى هذه الحقيقة، تبرز خطيئة الفكر الغربى تجاه الإسلام فى أنه جاء ليزيل المسيحية، وذات الخطيئة فى اليهودية كذلك، ويحل محلهما، وينتقص من أرضهما، ويسوم أتباعهما العذاب، ويبذر بذور التوتر والصراع العالمى، فما جاء الإسلام إلا حاملا رسالتيهما الصحيحة، مؤمنا برسوليهما ومعليا شأنيهما، ومتصالحا مع أتباعهما، داعيا إلى التعاون معهما فى سبيل المصلحة والخير والسلام للبشرية جمعاء.

وقد أشار الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – إلى هذا الجوهر النفيس فى قوله: «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا وحسنه إلا موضع لبنة، فصار الناس يطوفون ويقولون: لو وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

ومـــن ذلك يـــدرك الناظر بعيـــن الإنصاف لدين الإســـلام أنه لا يقيم خصومة مع أحد، ولا عداء مع من آمن بدين آخر ورفض الإسلام، وأنه يمد يده دوما إلى المخالفين، يقيم جسور التعاون معهم، على أساس أن كل إنسان إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق، على شرط احترام أصوله وثوابته، ومســـالمة أتباعه وعدم فرض الأيدولوجية الغربية وقهر المســـلمين على الانصياع لها، وممارســـة الغزو الفكرى، ومحو أو تمييع الشخصية المسلمة.

ومـــن هنا تبـــرز الإشـــكالية القائمة فى علاقة الإســـلام والمســـلمين بالغرب، من منطلق أن المسلمين كلهم إرهابيون وحاقدون على الغرب، بســـبب صنيع فئة مارقة عن الإسلام فى ممارستها لأعمال عدوانية ضد الأبريـــاء والمدنيين، كما يتجلى ذلك فى الاختراق الغربى للإســـلام فى عمق أوطان المسلمين، وتفكيك بنية المجتمعات الإسلامية من الداخل، وإثارة نزعات الانفصال والفرقة، وإشعال نيران الحروب فى قلب العالم الإسلامى، ودعم وجود إســـرائيل وتكريس عدوانها على الفلسطينيين، ومناصرتها فى أيدولوجيتها العنصرية واســـتباحتها لحرمة المقدســـات الإسلامية فى المسجد الأقصى، وأماكن العبادة، والوطن الفلسطينى.

ولو أنصف عقلاء الغرب ودعاة السلام، فيه، واستجابوا لداعى العقل الرشـــيد، والمصلحة العالمية، لأيقنوا أن التعامل على أســـاس الاحترام مع رســـالة الإســـلام فى الدين والحياة، والحفاظ على حقوق المسلمين، والتعاون المخلص معهم، هو الســـبيل الحق، لإرســـاء الســـلام العالمى، وثقافة حقوق الإنسان.

لكن الغرب، بما أحرزه من تفوق مادى وتكنولوجى يصر على التخلى عن الهوية الدينية وإضعاف شخصية المسلم، بالتشكيك فى الإسلام ونزعه من أعماق نفوس المسلمين، ومحو الإيمان بالقرآن والتصديق بمحمد ﷺ إن أمكنه ذلك، أو على الأقل انتزاع أوطانه، والسيطرة على مقدراته، ونهب ثرواته، وإخضاع المسلمين، واختراق دينهم، وجعلهم تروسا فى آلة الصناعة الغربية.

إن الواقع المشاهد على الساحة الإسلامية يؤكد على سلوك هذه الممارسات الظالمة ضد الإسلام والمسلمين، وهى تمضى على قدم وساق غير عابئة بمطالبات المسلمين بالكف عن العدوان على دينهم وأوطانهم، ولا مكترثة بأصوات دعاة السلام، وهم موجودون فى العالم الغربى، إذ يأبى أصحاب القرار إلا أن يكرسوا هذا الصراع وأن يبقوا على تبعية العالم الإسلامى لسطوتهم وسلطانهم.

وفى ذات الوقت ولصرف الأنظار عن إيجاد الحلول المنهية للمشكلات القائمة والصراعات المشتعلة على أرض العالم الإسلامى، لا يكف الغرب عن طرح مبادرات ذات بريق جذاب، وأهداف كبيرة تبنى عليها آمال كبار دون أن تجد لها صدى ملموسا على أرض الواقع، فعلى المستوى الدينى والفكرى تدور حوارت الأديان والثقافات والحضارات، نذكر مما انعقد منها مؤخرًا فى لقاء القمة لزعماء الأديان العالمية الذى عقد فى باكو عاصمة أذربيجان، ودعا إلى استتباب السلام الذى يحفظ لكل دولة وحدتها الترابية، وأن الحاجة إلى التعاون بين المجتمعات الدينية التقليدية تتعاظم بحكم الظروف الراهنة، وأكد مسئولية زعماء الأديان

تجاه مستقبل العالم التى تحتم عليهم مواجهة الأنانية والعنف والعداء.

كذلك انعقد المنتدى الثالث لتحالف الحضارات فى البرازيل، والذى دارت فعالياته حول التنوع الثقافى وتحالف الحضارات كإحدى الوسائل الأساسية لتحقيق السلام على المستوى الدولى.

ولسنا نقول بأنه لا جدوى من هذه المؤتمرات والمنتديات، بل نثمنها، وندعو إلى تفعيلها، ومتابعة ما يصدر عنها، لكن الأهم هو توفر النية الصادقة والإرادة الجادة على ترجمة حصيلة رؤاها فى الواقع المعيش، والاعتراف بالإسلام كدين ومنهج فى النظام العالمى، والدعوة إلى تخليص العالم من الصراعات والحروب، والكف عن سلوك الأسباب الموصلة إليها، وإرساء السلام العالمى والتعاون النافع بين الأمم والشعوب.

* * *

صورة الإسلام عبر شبكة المعلومات العالمية [الإنترنت]

يكاد يتعذر على المطالع والمتابع لشبكة المعلومات الدولية، أن يحيط علما بكل ما يبث على هذه الشبكة العنكوبتية الجبارة، لما تحويه من الجديد والغريب والفريد من المعلومات والأنباء. فلا يستطيع أن يحصى كم الأخبار والمقالات والأطروحات والآراء والرؤى التى تتناول الإسلام فى كل مناحيه وتصوراته ومفاهيمه باعتباره دينا إلهيا وعقيدة يدين بها المسلمون حول العالم ونظرته للكون من حولنا، وتصوره للحياة التى نعيشها، واعتبار الإنسان محور الوجود ومحط الاهتمام فى هذا العالم منذ بدء الخليقة، وحتى قيام الساعة، ولذلك تزايد الاهتمام بالإسلام الدين والأيدلوجية والشرع والأخلاق والحضارة، بغرض تحجيم دوره، والحد من سلطانه على النفوس والعقول، فى العالم المتقدم وفى عقر داره، ضمانًا لسيطرة الغرب على مقدرات العالم المعاصر. وثمة ملاحظة لا تخطئها العين البصيرة، على مواقع هذه الشبكة الأثيرة تتحصل فى جعل الإسلام محاصرا وهدفا للاتهام ومرمى لتصويب السهام إليه دائمًا ليس بغرض النقد الموضوعى، وإنما بقصد تجريده من مواضع القدسية وإزاحته عن مواقعه الحصينة فى بلاد الإسلام، وبالأولى عن بلاد الغرب، والاجتراء عليه وتقييمه بحسبانه فكرا بشريا، يخلع عنه وصف الدين الإلهى الذى نبع من مشكاة ووحى الأديان السماوية، باعتبارها الأديان التى انبثقت من تعاليم السماء وهى الدين اليهودى

والدين المسيحى، ثم كان ختامها الدين الإسلامى، باعتباره الدين الشامل والمتمم والمحصن للديانات السماوية السابقة عليه، ومصدقا لها، ومنافحا عن قيمها وتعاليمها الإلهية فى مجابهة الأديان الوضعية والوثنية الجديدة، والمادية الطاغية.

هذه الصورة المغلوطة والخاطئة عن الإسلام ليست الوحيدة فى هذا الزخم من المعلومات، لكن تبقى هى الجانب الغالب على مجمل الفضاء الخارجى الذى يعرض به الغرب الإسلام، بما يملكه من تقنيات هائلة باعتباره صاحب السبق والريادة فى المجالات العلمية والتقنية، الموجه لها بحسب ما يبوئه مركز الصدارة والنفوذ، ويحقق مصالحه ومطامعه، ويضمن له السيطرة والتحكم فى مصير ومستقبل العالم المعاصر.

ومن الإنصاف القول بإن هذا الفضاء المعلوماتى، يطلع فيه المتصفح للمواقع على لون آخر من الإنصاف يتمثل فى إظهار مكانة الإسلام كدين إلهى حمل للبشرية مبادئ وقيم وحضارة، أضافت للعطاء الإنسانى عبر المسيرة البشرية المتطاولة فى توالى الأزمان، وتعاقب الأجيال. وعلى الرغم من النظر الموضوعى والبناء فى هذا التوجه، لكنه يظل قابعًا فى مساحة ضيقة وعلى استحياء، ومحاطا بالانتقادات والهجوم عليه من المعسكر المناوئ.

وثالث الاتجاهات التى يرصدها المتابع لما ينشر فى هذا الجهاز الخطير، تلك المعلومات والأخبار الملتبسة خليط من عمل صالح وطالح معًا، بما يكشف عن جهل ونقص المعرفة عن الآخر، خاصة الجهل بحقائق الإسلام ومقاصده العليا فى الحياة وطبيعة رسالته، ونمط علاقاته

بالآخر، وفى المقابل القصور المعيب من جانب المسلمين فى فهم الغرب، وتوجهاته إزاء الإسلام، ونظرته السلبية تجاه الأديان، ونفى المقدس، وتعظيم كل ما هو عقلانى ومادى.

وإذا كان مقبولا أن تعدد الرؤى والاتجاهات فى منظورها للإسلام على سند من أن التنوع والتباين وهو من السنن الإلهية التى أرساها الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة هود: الآيتان ١١٨-١١٩].

إلا أنه من غير المقنع والمجافى للعقل والمنطق بث هذا السيل من الهجوم الضارى على الإسلام برمته، والسعى لاختراق أصوله وجماع منظومته، فى عصر تقاربت فيه سبل التواصل والاجتماع بين البشر، وطويت المسافات، وأصبحت السماوات مفتوحة تيسر سبل الحصول على المعلومات، ويتسنى الإطلاع على الحقائق على أرض الواقع، بحكم المنجزات التكنولوجية التى صيرت العالم قرية كونية، وجعلت من عصر المعلوماتية حقيقة كائنة.

ومن غير المفهوم كذلك، أن تتصدى لهذه الحملات المسيئة للإسلام شبكات إعلامية ورموز غربية ومراكز صناعة القرار فيه، ومؤسسات بحثية وأكاديمية ومجموعات عنصرية ولوبيات صهيونية يهودية ومسيحية، وتنظيمات سياسية عن طريق وصم الإسلام بكل ما هو إنسانى وغير حضارى.

لقد بات مألوفا ومعروفا نعت الإسلام بأنه دين بدائى متخلف، يتخذ من العنف والتصفية الجسدية والإرهاب نهجا للتعامل مع المخالفين

لـــه، وأنـــه لا يعرف التعايش الســـلمى مع الآخر، وأنه ديـــن الكراهية والتعصب والتمييز ضد الأغيار الكفار والمشـــركين. وأنه لا يؤمن بحقوق الإنســـان وحق المواطنة، ويـــزدرى المرأة ويجعلهـــا مواطنا من الدرجة الثانية.

كان لزاما فى ظل هذه الأجواء العاصفة ضد الإسلام، أن تنشأ ظاهرة الإســـلاموفوبيا (الخوف من الإسلام) ويعزى هذه النشـأة إلـــى منظمـــة The Runnymede Trust[1]. وهى إحدى منظمات المجتمع المدنى NGO.S عام ١٩٩٧م، فقد حددت معالم هذه الظاهرة فى المعايير الثمانية الآتية:

١ – اعتبار الإسلام كيانا أحاديا جامدا قلما يتأثر بالتغيير.

٢ – نعـــت الإســـلام بوصفه الآخر، الذى ليس له قيم مشـــتركة مع الثقافات الأخرى، ومن ثم لا يتأثر بها ولا يؤثر فيها.

٣ – الإســـلام يحتل مكانة دونية بالنسبة للغرب، وهو بربرى وغير عقلانى بدائى وجنسى النزعة.

٤ – وصم الإســـلام بالعنف والعدوانية ومصدر خطورة للســـلام، وأنه مفطور على الإرهاب والصدام بين الحضارات.

٥ – النظر للإســـلام على أنـــه أيدولوجية سياســـية لتحقيق مصالح سياسية وعسكرية.

٦ – رفض أى نقد إسلامى للنظام الغربى.

٧ – تصنيف الإســـلام ضمن الأعداء، لتبرير ممارســـات تمييزية ضد المسلمين وإبعادهم عن المجتمع المهيمن.

---

(1) aljazeera.net / Http:\\www./ porta/ templates.

٨ – تبنى سياسة العداء تجاه المسلمين، باعتبارها أمرا طبيعيا وعاديا والمستقرئ المدقق فى معالم الصورة، يخرج بخليط من الرؤى والاتجاهات يمكن رصدها فى ثلاثة نماذج:

النموذج الأول:

نموذج الطعن والإساءة والتشكيك فى الإسلام.

النموذج الثانى:

نموذج الموضوعية والإنصاف تجاه الإسلام والمسلمين.

النموذج الثالث:

نموذج الالتباس أو الخلط بين الطعن والإنصاف.

* * *